IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية
JORNAL OF LANGUAGE STUDIES
ISSN: 2663-9033 (Online) | ISSN: 2616-6224 (Print)
Journal of Language Studies
Contents available at: http://jls.tu.edu.iq

Revelations of the Incarnation Vision in Selected Poems of Ibnul-Sabbagh Al-Juthami

Inst. Dr. Eman Shail Salim*
College of Basic Education, Mosul University
E-mail: emanshel@uomosul.edu.iq

Keywords:

Ibnul-Sabbagh Al-Juthami

Manifestations of incarnation

Incarnation Doctrine

identification

Article Info

Article history:

Received: 16-12-2020
Accepted: 20-1-2021

Available online

Abstract

Sufi poetry is one of the literary genres that enriched Arab poet its meanings and experiences, by including these poems ma mystical terms with special connotations, and pure spiritu experiences that are based on different things derived from the S doctrine that poets employed in their poems.

Therefore, this study came to examine the effect of the manifestation of the phenomenon of mystical incarnation in Ibn ul-Sabbagh Al-Juthami's, and the methods he used to express this doctrine, and to reveal the relationship of the doctrine of incarnation to place, and the effect of that on the poetic text, taking into account the statement of what the term is and revealing some of the differences between the two terms: "incarnation" and "mystical union". The paper ends with a conclusion which sums ap the findings of the study.

* **Corresponding Author**: Dr. Eman Shail Salim , **E-Mail: emanshel@uomosul.edu.iq**
Tel: +9647708228281 , **Affiliation:** Mosul University-Iraq

تجليات الرؤية الحلوليَّة في نماذج من شعر ابن الصباغ الجذامي

م. د. ايمان سهيل سالم

كلية التربية الأساسية, جامعة الموصل

الكلمات الدالة:-

– ابن الصباغ الجذامي

–مظاهر الحلول

–المذهب الحلولي

–التعريف

معلومات البحث

تاريخ البحث:

الاستلام: 16-12-2020

القبول :20 -1-2021

التوفر على النت

الخلاصة:

الشعر الصوفي من الأجناس الأدبية التي أضافت الكثير إلى الشعر العربي، وقامت بإثراء معانيه وتغذية تجاربه، وذلك من خلال تضمين هذه الأشعار العديد من المصطلحات الصوفية ذات الدلالات الخاصة، والتجارب الروحية الصافية التي تقوم على أمور مختلفة من الاعتقاد الذي وظَّفه الشعراء داخل قصائدهم.

ولذلك جاءت هذه الدراسة تبحث في أثر تجلي ظاهرة الحلول داخل أشعار ابن الصباغ الجذامي، والوسائل التي استخدمها للتعبير عن هذا المذهب، والكشف عن علاقة مذهب الحلول بالمكان، وأثر ذلك على النص الشعري، مع الأخذ في الاعتبار بيان ماهية المصطلح والكشف عن بعض الفروق الموجودة بينه وبين مصطلح الاتحاد، وتأتي الخاتمة في نهاية الدراسة لتعرض أهم النتائج التي توصلت إليها.

التمهيد

أولًا: نظرة عامة على المذهب الحلولي:

قبل الشروع في الحديث عن تجليات المذهب الحلولي في شعر ابن الصباغ الجذامي لا بُد لنا أولًا من التعرف على مفهوم المذهب الحلولي، والتعريف بمصطلح آخر يقترن به في معظم الدراسات وهو مصطلح الاتحاد، مع بيان الفرق بين المذهبين، وذلك في سبيل التعرف على ماهية المصطلح ووضع الأُطر العامة له.

والحلول في اللغة من الفعل (حلَّ)، ومنها: يَحُلُّ ويَحِلُّ حلًّا وحُلولًا، ويقال: حل بالمكان أي نزل به فهو حالٌّ[1]، ومن ذلك الحلول أي أن يتحد الجسمين معًا ليصيرا وكأنهما شيء واحد، فتكون الإشارة إلى أحدهما بمثابة الإشارة إلى الآخر[2].

والحق أن مصطلح الحلول في عقيدة الصوفيين لا يختلف كثيرًا عمَّا وضع له في الأصل اللغوي، فالحلول عند الصوفية هو أن الله عز وجل يحل في أجسام بعض المخلوقات، أو بمعنى آخر أن اللاهوت يحل في الناسوت[3]، بمعنى أن الذات العليا تحل روحها في بعض الموجودات في الكون كالأشجار أو الأحجار والحيوانات والبحار والإنسان وغيرها.

ويتداخل مصطلح الحلول مع العديد من المصطلحات الصوفية الأخرى، وذلك مثل مصطلح الاتحاد والفناء، ونجد الكثير من العلماء يخلطون بين هذه المصطلحات ويستعملونها بمعنى واحد، ومن ذلك قول ابن القيم بالتساوي بين مصطلح الفناء الصوفي والحلول والاتحاد، وهو يربط بين تجربة الحب الإلهي – وهي من أهم منازل الفناء– وبين الحلول والاتحاد[4]، ومن أجل هذا الخلط لا بُد لنا أن نقف على مفهوم الاتحاد باعتباره أكثر المصطلحات التي تختلط مع مصطلح الحلول مع بيان الفرق بين المصطلحين.

والاتحاد في اللغة أصله من الفعل الثلاثي (وحد)، ومنه آحاد وأُحدان واستأحد واتَّحد، وكل هذه المعاني تدل على الانفراد والتفرد[5]، ويقال اتحد بمعنى انفرد، واتحدت الأشياء بمعنى صارت شيئًا واحدًا[6].

ولقد وضع رجال الصوفية وغيرهم الكثير من التعريفات لمصطلح الاتحاد، ومن ذلك تعريف الجرجاني له بأنه: "جعل الذاتين ذاتًا واحدة، وهو لا يكون إلا في العديد؛ اثنين وما يزيد عليه"[7]، بمعنى أن يفقد الشيء بعض خصائصه فيتحد مع غيره ويتداخل معه بحيث يكتسب من ذلك خصائص جديدة، ويعرَّف الاتحاد أيضًا بأنه: "شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي لكل موجود بالحق فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودًا به معدومًا بنفسه لا من حيث إن له وجودًا خاصًا اتحد به فإنه محال"[8].

ومن خلال هذه التعريفات نستطيع أن نتبين الفرق بين مصطلحي الحلول والاتحاد، فالحلول هو أن يحل الشيء بخصائصه وسماته داخل شيء آخر، دون أن يفقد أحد الشيئين سماته أو طبيعته التي تميزه، كحلول الذات الإلهية في الذات الإنسانية، أما الاتحاد فيكون أكثر امتزاجًا وتداخلًا بين الشيئين، فهو انفراد وامتزاج يُفقد الأشياء المتداخلة بعض صفاتها وخصائصها[9].

ومن خلال النظر في أقوال كبار المتصوفة نلاحظ أن بعض الصوفية لم يكونوا يؤمنون بالحلول أو الاتحاد الذاتي، وإنما هو حال من الأحوال، والذي يوضح ذلك قول ابن عربي في الفتوحات المكية: "ومن أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلًا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها؛ وإنما كان القمر مجلاها، فكذلك العبد ليس فيه شيء من خالقه ولا حلَّ فيه"[10]، فهذا القول يبين أن نظرة ابن

عربي إلى الحلول والاتحاد لم تكن بالمعنى الحرفي للمصـــطلحين، أي إنه لا يؤمن بحلول الذات الإلهية بنفسها داخل جسد الإنسان واتحاده معها، وإنما هو قَبس منها.

ومهما تكن طبيعة النظرة إلى عقيدة الحلول والاتحاد المعروفة عند الصـــوفية، فإننا نجد الكثير من الشعراء والأدباء تناولوا هذه العقيدة ووظفوها داخل أعمالهم الأدبية، وذلك مثل الشاعر ابن الصباغ الجذامي الذي تناول عقيدة الحلول في كثير من أشعاره الصوفية ومدائحه النبوية.

ثانيًا: التعريف بابن الصباغ الجذامي:

لم يحظَ ابن الصـــباغ الجذامي بالعديد من الترجمات الوافرة التي تداولت المعلومات عن حياته، فالمعلومات التي وصلت إلينا عنه قليلة للغاية، ومنها أنه من شعراء الأندلس في عصر دولة الموحدين، كان يدعى أبا عبد الله محمد بن الصباغ الجذامي، وكان يعيش في زمن الخليفة المرتضى، في حاضرة الدولة الموحدية (مراكش)[11].

كان ابن الصباغ الجذامي من الشعراء الذين اهتموا بموضوع المدائح النبوية، حيث ترك لنا ديوانًا ضخمًا ضمَّ فيه العديد من القصائد والمخمسات والموشحات العامرة بالمدائح النبوية المخالطة مع أجواء الصـــوفية، لذلك عرف بالزهديات والمديح النبوي، وفيما يلي عرض لأهم مظاهر تناول ابن الصباغ الجذامي للعقيدة الحلولية داخل أشعاره وقصائده.

المبحث الأول

مظاهر الحلول في شعر ابن الصباغ الجذامي

أنتج ابن الصباغ الجذامي العديد من القصائد والأبيات، منها ما جاء في الديوان ومنها ما سقط منه، ولقد رأى الكثير من النقاد أن شعر ابن الصـــباغ الجذامي لا يرقى إلى مستوى الشـــعراء الكبار أمثال ابن زيدون وغيرهم[12]، وذلك لما امتزج به شـــعره من الألفاظ الشـــعبية والموسيقى الشعبية وغيرها، ولكنه قد جاء معبرًا عن جزء من روح الحياة الاجتماعية في الأندلس في ذلك العصر.

كتب ابن الصـــباغ الجذامي معظم شـــعره في المديح النبوي، ولقد اختلط ذلك المديح اختلاطًا واضحًا بالتصوف وما به من أفكار ومضامين، فمن خلال أشعاره الصوفية يستطيع المتلقي أن يعيش بروحه مع النبي صلى الله عليه وسلم ويتمثله أمامه، ولذلك فإن أهمية شعر ابن الصباغ الجذامي تتمثل في أنه قد ألف بين نوعين من الأنواع الشعرية وخلط بينهما وقدمهما في إطار واحد، وهما الشعر الصوفي وشعر المدائح النبوية.

وبالنظر في شعر ابن الصباغ الجذامي نستطيع أن نلاحظ أن الشاعر قد وشح شعره بالعديد من الألفاظ والمصطلحات الصوفية التي تحمل دلالات وإشارات خاصة بالعقيدة الصوفية، وذلك مثل ألفاظ الوصل، والوجد، والشطح، والحب، والقطب، والسكر وغيرها الكثير من الألفاظ التي تحمل دلالات صوفية خاصة.

كذلك فإن الشاعر قد ضمن أشعاره العديد من الإشارات الصوفية التي جاءت إما على سبيل التصريح، أو جاءت تستنبط من معاني الأبيات، فقارئ شعر ابن الصباغ الجذامي يستطيع أن يلاحظ إشارة الشاعر إلى بعض العقائد الصوفية سواء جاءت هذه الإشارة واضحة صريحة، أو خفية باطنية، وقد وظف هذه العقائد لخدمة المعنى وأدائه، وهو الإمعان في المديح النبوي، ومن بين هذه العقائد الصوفية التي وظفها ابن الصباغ داخل أشعاره عقيدة الحلول.

والحق أننا نلاحظ أن ابن الصباغ لا يتناول الحلول بشكل واضح وصريح في أغلب الأحيان بل يكتفِ بالإشارة إليه والتلميح إليه من بعيد، ومن الأمثلة التي يظهر فيها ذلك قول الشاعر في إحدى مخمساته[13]:

إذا غنت الأطيار سجعًا على فَنَنْ ذكرت الذي أوليتموني من المننْ
فيا غاية المشتاق في السر والعلن لعلك تحيي دارسات رسوم مَنْ
بِريقة هجران الأحبة قد غصا
لقد ألبستني فجعة البين روعةً ولكنني قد زدت وجدًا ولوعةً
متى يملك المشتاق في الحب رجعة فيمنح بالتقريب أُنسًا ورفعة
ويصبح من بعد التباعد مختصًا

ففي هذه الأبيات يقر ابن الصباغ الجذامي بالنعم التي من الله عليه بها، فهو يذكرها كلما غردت الطيور على أغصانها، ثم يناجي الشاعر الله سبحانه وتعالى، ويتمنى أن ينال القرب والرضا بعد أن غص كثيرًا بالبُعد والنَّأي، فهو يمنِّي نفسه المشتاقة بالعودة إلى الحبيب فيقرب من مجلسه ويأنس بوجوده.

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الإشارة الخفية إلى عقيدة الحلول الصوفية، بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقًا، ويظهر ذلك في قوله: "والعلن لعلك تحيي دارسات رسوم من بريقة هجران الأحبة قد غصا"، فابن الصباغ يعبر عن قلبه بأنه رسم قد درس من البين والهجران، وهو يطلب من الحبيب أن يحيي هذا الطلل الدارس، وإحياء الطلل لا يكون إلا بوجود الحبيب فيه وحلوله، وبذلك تتجلى الرؤية الحلولية، وتتجلى أيضًا في معنى قريب من ذلك في الأبيات نفسها في قوله: "متى يملك المشتاق في الحب رجعة فيمنح بالتقريب أُنسًا ورفعة"، فهو يتمنى لروحه

الأنس والتقريب والرفع بجوار المحبوب والأنس والتقريب لا يكون إلا من خلال الحضـــور، أي حضـور المحبوب بجوار المحب، وبذلك تصـبح الإشـارة الحلولية في هذه الأبيات واضـحة ولكنها تحتاج إلى مَنْ يجليها، وبهذا يكون ابن الصـــباغ قد خلق من التجربة الشـــعرية مناخًا خصـــبًا للإشـارة إلى مذاهب التصـوف باعتباره "ضـبط للحواس ومراعاة للأنفاس"[14]، الأمر الذي انعكس بالضرورة على شاعرية النصوص.

وتظهر تجليات المذهب الحلولي أيضًا في شعر ابن الصباغ في قوله[15]:

يا نائمًا عن وصلهم قم لا تنم سحرًا سرت ريح التداني فانْتسِمْ

هَبت بسرِّ الأنس فانعم واغتنم جاءت تبشر بالرضى عنهم فَقُسمْ

للشِطْحِ قد آن أوان الافتضاح

إذ تتضـح في هذه الأبيات إشـارة ابن الصـباغ الجذامي إلى المذهب الحلولي من خلال قوله: "جاءت تبشر بالرضـى عنهم فقسم للشطح قد آن أوان الافتضـاح"، فقد وظف الشاعر كلمة الشـطح للإشـارة إلى عقيدة الحلول، والشـطح أحد المصـطلحات الصـوفية التي لها دلالة خاصـة عندهم، وهو ما يتلفظ به العارف في بعض الأحوال الصـــوفية، وهو يقتضـــي نوعًا من الشـــفافية والعلو على مراتب النبيين والمرســـلين[16]، والشـــطح يكون بإحدى الطريقتين إما بالتجلي بحيث يتجلى المولى عز وجل "لكل شـخص على قدر طاقته وعلى قدر ما تسـعه حوصـلته من تجلي الجمال القدســـي الذي لا تدرك له غاية، ولا يوقف له على حد ولا نهاية"[17]، وإما الحلول بحيث يتم حلول الذات الإلهية في جسد وقلب العارف، فتفيض نفسه ويغيب عن شهود الغير في حضرة الذات الإلهية، فينطق لسانه بما يعبر عن حاله.

وعلى ذلك فإن ابن الصـــباغ الجذامي قد أشـــار إلى المذهب الحلولي من خلال توظيفه للشـــطحات الصـــوفية، والذي يجعلنا نرجح كفة الحلول على كفة التجلي، هو اســـتخدامه لكلمة التداني التي تشـــير إلى القرب، وهو ما يكون في الحلول، أما التجلي فلا يشـــترط فيه القرب. ويشير ابن الصباغ الجذامي إلى المذهب الحلولي أيضًا في قوله في إحدى موشحاته[18]:

كُنْ لي يا ربِّ معينا وَصِلِ الصَّبَّ الحزينا

قبل أن يحين حِيْنِي وأرى الموتَ يقيـــنا

نَمَّ ريحانُ التَّداني وسَرتْ ريحُ الوصالِ

قد صفا وِرْدُ الأماني فانتهِضْ إلى المعالي

ففي هذا المثال يدعو الشاعر ربه أن يكون له معينًا على ما أصبح فيه من آلام الشوق والبعد، وهو يدعوه إلى وصل هذا الصَّب الحزين قبل أن تفارق روحه جسده، فهو يطلب من الله عز وجل القرب والوصال قبل فوات الأوان.

ولعلنا نلاحظ في هذا المثال تجلي المذهب الحلولي والإشـــارة إليه، وذلك من خلال توظيف بعض الدوال التعبيرية، كالتداني والوصل والوصال، وهي كلمات تشير إلى ذلك المذهب، فالقرب من شـــروط الحلول، والتداني هو "معراج المقربين، وينتهي إلى قاب قوســـين"[19]، أما الوصل فهو القرب، والقرب اتصال، والاتصال قد يكون الحلول أحد طرائقه، وعلى ذلك فإن ابن الصباغ الجذامي قد وظف لنا بعض المصطلحات الصوفية ليشير من خلالها إلى مذهب مهم من المذاهب الصوفية وهو المذهب الحلولي.

ومن خلال النظر إلى القصـــائد الموجودة في الديوان نجد ابن الصـــباغ يتخذ بعض الوسائل التي تمهد إلى ظهور هذا المذهب الحلولي، ومن هذه المصادر أو الوسائل إظهار الحزن والألم والتبرُّم من فرط الاشـــتياق، وطول الفراق، ويظهر ذلك في مواضـــع كثيرة، ففي الموشـــح السابق على سبيل المثال نجد الشاعر يفتتح الموشح بمقدمة طويلة يبرز فيها مدى ألمه وشوقه، وذلك تمهيدًا لتجلي المذهب الحلولي داخل الأبيات، حيث يقول[20]:

أَلِف المُضنى الشَّجُونا	وارتضى الأحزانَ دينا
فوقَ صَفْحِ الوجنتينِ	أهملَ الدمعَ الهَتُونا
يقطعُ الأيامَ حزنًا	وبكاءً وعويـــلا
مُلهبَ الأحشاءِ مُضْنى	بالنَّوى أضحى عليلا
ذابَ شوقًا وحنينا	وسقامًا وأنينـــا
يا لهُ مِن حِلْف بَيْنِ	يرتضي فيكَ المنونا
أترى عهدًا تقضَّى	منكم لي هل يعود

فهذه هي مقدمة الموشح، جاءت مليئة بالحزن والألم والشكوى، فقد أَلِف الشاعر الشجون، بعد أن ارتضى بالأحزان أن تكون دينه، فلم يعُد يعبأ بهذه الدموع الجارية على وجنتيه، إذ أصبح يقضي يومه كله بين الحزن والبكاء والعويل، فأحشاؤه ملهبة، وهو عليل بالنوى، وقد ذاب من شدة الشوق والحنين، وأصبح سقيمًا لا يملك غير الأنين.

فهذه المقدمة الطويلة مهد الشـــاعر بها للمتلقي تجلي المذهب الحلولي داخل الأبيات، فهذه الأبيات مثلت عقدة التجربة الشـــعرية التي كان لزامًا عليه أن يضـــع لها حلاً، فجاء الحل

ماثلًا أمام المتلقي في طلب الحلول، حتى تهدأ النفس وتكف عن أوجاع الروح والجسد من شدة الشوق.

ومن خلال ما سبق يمكننا القول أن ابن الصباغ الجذامي قد تجلى في شعره إشارات إلى المذهب الحلولي، إما عن طريق الإشارة أو التلميح أو التصريح، ولقد وظف بعض الوسائل المختلفة في سبيل الإشارة إلى هذا المذهب، ومن ذلك استخدامه لبعض مصطلحات الصوفية الأخرى، أو التعلل بالألم والشكوى، وكثرة الحزن والتعب بسبب الشوق والحنين، ولقد كان ذلك كله من أجل خلق أجواء تفيض بالكثير من المحبة الإلهية، وتليق بالمديح النبوي المليء بعبق التصوف، الذي يخاطب النفس الإنسانية بوجه الخصوص، فهو: "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا شيء آخر في سبيل معرفة الله"[21].

المبحث الثاني

المكان وعلاقته بدعوى الحلول عند ابن الصباغ الجذامي

للمكان أهمية كبيرة في حياتنا بشكل عام، فالإنسان يرتبط وجوده بالمكان الموجود فيه، وشخصية المكان تؤثر بدورها على الأشخاص، فالأشخاص يختلفون وتتباين طباعهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومعتقداتهم، وثقافتهم وفقًا لطبيعة المكان الموجودين فيه.

ولا تقتصر أهمية المكان في حياة الإنسان على ذلك وحده، بل نجدها تمتد لتتدخل في جميع مناحي الحياة، ومن ذلك الأدب الذي ينتجه الإنسان، فللمكان أهمية كبيرة فيما ينتجه الإنسان من آداب، فالمكان هو أحد المكونات الأساسية للحكاية، وهو الذي يمثل البُعد المادي الواقعي للنص، وهو الفضاء الذي تجري فيه الأحداث، ولا نبالغ إذا قلنا إن المكان يُعد في مقدمة العناصر والأركان الأولية التي يقوم عليها بناء النص الأدبي، سواءً كان هذا في الشعر أو في سرد القصة القصيرة أو القصة الطويلة أو الرواية [22].

وللمكان علاقة وثيقة بجميع عناصر بناء النص الأدبي الأخرى؛ فإذا نظرنا إلى علاقته باللغة وجدنا أن اللغة هي السبيل الوحيد والقناة الرئيسية لإيصال ما يبدعه الأديب للمتلقي، سواء كان هذا من قريب أو بعيد، فاللغة هي التي تعيد صياغة المحتوى الذهني المليء بجميع التصورات والخيالات إلى أشكال ورموز[23]، وهو أيضًا وثيق الصلة بالأشخاص الموجودين داخل العمل الأدبي، وبالأحداث الجارية داخل النص، وعلى المكان تتحرك الشخصيات، فهو الذي يقتضي وجود الأحداث والشخصيات، وهو يشكل وعاءً للحدث.

وبالنظر في شـعر ابن الصـباغ الجذامي نجد أنه قد انتبه إلى أهمية المكان داخل النص الأدبي، حيث نلاحظ أنه قد تعامل مع المكان تعاملًا خاصًّـــا، فوظف المكان بطريقة تعمل على إجلاء بعض الأفكار الصـــوفية، ومن ذلك ارتباط المكان بدعوى الحلول عنده، ويظهر ذلك في أمثلة كثيرة داخل الديوان، منها قول الشاعر مثلًا في إحدى قصائد الشعر العمودي[24]:

نبِّهْ فؤادك من طويل رقاده واعمل على رفض الهوى وجهاده
شهر الأصبَ ألم طارق وفده أكرِمْ بوفدٍ شَقّنـــــا ببعـــاده
من كان في غي وطول بطالة فلينتبه هذا أوان رشـــــــاده
قـــم ليلهُ متوسلًا متبتـــلًا ومُرتلًا للذكـــــر فـــي أوراده
خدِّدْ بدمع العين خدَّك في الرجا واضرع له يكفيك طول بعـــاده
كم ساهر قد نال فيـــــــه مراده لكن بطول بكائه وســـــهاده
في محرابه يحكي حمام الأيك فـــي إيراده
كم بات والشوق المبرح في الحشى مُذْكَى لهيب ضرامـــــــه بفؤاده

ففي هذه الأبيات يخاطب ابن الصـباغ نفســه وكل مَنْ أراد أن يتحقق له الوصـــال مع المولى عز وجل، فهو ينصح الإنسان بأن يجعل قلبه نشيطًا بالطاعة، عامرًا بالإيمان، وأن عليه أن يجاهد نفسه ولا يتبع هواه، وعلى المرء أن ينتبه ويسلك سبيل الرشاد، فيتبتل ويتوسل إلى الله بالذكر والترتيل وإنفاق الدموع في حب الله والخشية منه.

وتتجلى ملامح الحلول في هذه الأبيات من خلال بعض العبارات والمعاني التي ألحَّ ابن الصـباغ على توظيفها، وذلك في قوله: "خدِّد بدمع العين خدك في الرجا واضـرع له يكفيك طول بعاده"، فهو يجعل الترتيل وذكر الأوراد والتوســل إلى الله بالدعاء والدموع والرجاء وســيلة لتحقق القرب وزوال البعد، ولا شك أن القرب يكون بالحلول، أي اقتراب الذات العليا من العبد عن طريق حلولها في جسده.

وتبرز هنا علاقة وثيقة بين المكان والمذهب الحلولي الذي أشار إليه الشاعر، وذلك من خلال كثرة توظيف بعض الدوال التعبيرية الخاصة بالمكان، مثل قوله: (شفنا ببعاده، طول بعاده، في محرابه)، فإذا نظرنا إلى معاني الأبيات منذ بداية القصيدة نجد الشاعر يقدم النصيحة لنفسه ولغيره حتى يتحقق لهم القرب ويُزيلوا عنهم البعد، ولا شــك أن القرب والبعد من العناصـــر الدالة على المكان، فقرب الذات الإلهية منهم – باعتبار الجسد الإنساني محل أو مكان حلولها– هي غاية الشـاعر المنشـودة، وابتعادها عنه هي ما يخشـاه ويخافه، كذلك فإن هذا القرب لا يكون إلا

من خلال خلوة العابد في محرابه متوسـلًا خاشـعًا لله راجيًا أن يحقق له ما يتمنى، وبذلك يكون للمكان دور مهم في الأبيات وفي الإشـارة إلى المذهب الحلولي، فهو هدف التجربة الشـعرية، ووسيلة تحقق هذا الهدف في آنٍ واحد.

ومن الأمثلة التي تظهر فيها شخصية المكان أيضًا قول الشاعر في إحدى قصائده[25] :

تركتُ امتداح العالمين ولُذْتُ من ... مدائح خير الخلق بالعروة الوثقا
سأجعلُها كهفي وحصني وملجئي ... لعلي بالأمداح أستوجب العتقا
وأشدو بها في كـل ناد مردِّدًا ... أطارح في شَجْوي وأشجاني الورقا
وأنتشق الأرواح من نحو يثربٍ ... فتأرجِ لي نفحًا وتعبق لي نَشْقا
قرارةُ من أضحى ملاذًا وملجًأ ... وتربة مَنْ في المجد قد أحرز السبقا
لثمنا بأوهام العقول ترابهـا ... على نأينا والوجْدُ يغلبنا شوقـا
إذا ما سرى من نحو طيبةَ بارق ... نكاد من الأشواق نعتنق البرقا
فأجسادنا بالغرب تعتنق الأسى ... وأرواحنا راحتْ بأشواقنا شَرْقا
لئن قطعتني عن بلوغي لقبره ... قواطع تُضميني بأسهمها رشقا

إن شـخصـية المكان واضـحة مسـتقلة في هذا النص ، تكاد تكون هي العنصـر الأقوى المسيطر على المعنى داخل الأبيات، ولقد تعمدنا إيراد عدد كافٍ من الأبيات للكشف عن حقيقة توظيف ابن الصـباغ للكثير من الدوال التعبيرية الخاصـة بالمكان في هذه القصـيدة، ومنها قوله: (كهفي، وحصـني، وملجئي، ونادٍ، ويثرب، ونأينا، وطيبة، والغرب، وشـرق، وقبره)، ولا شـك أن هذه الدوال التعبيرية قد انعكسـت على المعنى وشـكلت التجربة الشـعرية، فأزمة الشـاعر في هذه التجربة الشـعرية هي أن قد حرقته نار الشـوق وكوَت أحشـاءه وذلك بسـبب النأي والبُعد عن قبر الرسول صـلى الله عليه وسلم، فبات يعتنق الأسى من فرط هذا الحزن، بل إنه قد قطع زمانه كله بالتذكر والأسى فلم يهنأ بعيشة صافية ولا دمعة راقية.

وبالنظر في هذه الأبيات نجد ابن الصـباغ الجذامي يشـير إلى الحلول ويوظفه، ولكن بطريقة مختلفة ومغايرة عن معناها في عقيدة الصـوفية، فقد أفاد الشـاعر من المذهب الحلولي الصـوفي، وأضـفى عليه من عاطفته وتجربته، فأخرج لنا شـكلًا جديدًا من أشـكال الحلول الذي أشار إليه في قوله: "لئن قطعتني عن بلوغي لقبره قواطع تضميني بأسهمها رشقا"، ففي هذا البيت نلاحظ الإشارة إلى المذهب الحلولي من خلال الإشارة إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا شـك أن الجسـد يحل في القبر، وإذا كانت نفس الشـاعر معذبة إلى الحد الذي أعرب عنه في الأبيات السابقة نتيجة بعده المادي عن قبر الرسول صـلى الله عليه وسلم الذي يحل فيه جسده،

فما بالنا بأثر بعد الذات الإلهية عنه وهي الرجاء والأمل المنشـود، وبذلك يكون الشـاعر قد عمل على الإشـارة إلى المذهب الحلولي بطريقة تركيبية، اعتمدت أولًا على الإشـارة إلى قبر الرسـول وحلوله فيه، ثم الإشارة إلى أثر نأيه على الشاعر، وما يتبع ذلك من نأي الروح الإلهية.

وفي سـبيل بيان هذه الإشـارات وإيضـاحها اعتمد ابن الصـباغ على توظيف العديد من الدوال التعبيرية الخاصـة بالمكان، ليجعل شـخصـية المكان هي التي تُنبئ عن هذه المعاني وتكشف السِّتر عنها.

وتظهر أهمية عنصـر المكان وأثره في تجلي المذهب الحلولي عند ابن الصـباغ الجذامي في قوله[26]:

لله قلب بالعراق مُروّعٌ	يضحى ويمسى في أليم توجع
يا بين كم تشجي فؤادي عامدًا	وتذيب أحشائي وتلهب أضلعي
أمُودَّعن صبرًا عسى مَنْ قد قضى	بالبين يقضي بالتواصل فارجع
يا نفس للبين المتاح فسلمي	يا دهر بالأمر المقدر فاصدع
ولقد جزعت لبينهم إذ ودعوا	من ذا ليوم وداعهم لم يجزع
عل الزمان يعودني فيعيد لي	ما قد عهدناه بتلك الأربُع
فعلى المنازل بالعُذَيْبِ تحيةٌ	ما هاج مشتاقًا حنينُ مُرَجَّع

إذ تظهر شخصية المكان بشكل مستقل منذ بداية القصيدة إلى نهايتها، وذلك من خلال استخدام الشاعر لبعض الدوال التعبيرية التي تعبر عن شخصية المكان ، ومنها قوله: (بالعراق، الأربُع، على المنازل، بالعذيب)، فهذه الدوال التعبيرية تشـير إلى حضـور عنصـر المكان بشـكل كبير داخل النص الشـعري، ولقد كان لهذا الحضـور أهمية كبرى لإبراز عمق التجربة الشـعرية، وذلك لأن الشاعر في القصيدة يتوجع ويشكو من آلام الفراق، فالفراق هو الكلمة المفتاحية لتجسيد التجربة الشـعرية داخل القصـيدة، لذلك نجد الشـاعر يوظف كلمة البين أربع مرات ، ولا شـك أن معنى البين في القصـــيدة هو البين المكاني، حيث ودعه حبيبه ونأى عنه ورحل، الأمر الذي أورثه الألم والحزن.

ولقد عمد الشـــاعر في إبراز أهمية المكان إلى ترتيب الدوال التعبيرية الخاصـــة بالمكان ترتيبًا معينًا داخل القصـــيدة، حيث تعمد أن يبدأ القصـــيدة بها وينهيها بها أيضًـــا، حتى يجذب القارئ ويؤكد على أن المكان هو مفتاح تجربته الشـعرية الذي أورثه الشـجن والألم والحزن نتيجة البين عن مَنْ أحب.

ويستخدم ابن الصباغ الجذامي الحب موضوعًا للإشارة إلى بعض الأفكار الصوفية، وبخاصة مذهب الحلول، ويتجلى ذلك من خلال توظيفه لفكرة الحب التي تشير إلى العشق الإلهي، وهو أحد أهم أساسيات العقيدة الصوفية، كذلك تتجلى إشارة الشاعر إلى المذهب الحلولي من خلال توظيفه لبعض مصطلحات العقيدة الصوفية التي تفضي إلى الحلول، ومن هذه المصطلحات: (التواصل، مشتاق، وجدي، حالي)، فهذه فالوجد والوصل والاتصال كلها من الأحوال الصوفية التي يرتقي فيها السالك تدريجيًا حتى يصل إلى المراد وهو الشهود والحلول.

ومن خلال ما سبق يمكننا القول إن للمكان في شعر ابن الصباغ الجذامي شخصية واضحة ومستقلة عما سواها، ولقد خرجت أهمية هذا العنصر عن كونها أحد العناصر اللازمة لبناء النص، حيث نجد ابن الصباغ يوظف المكان في الإشارة إلى المذهب الحلولي داخل الأبيات، ليعمل ذلك في النهاية على خدمة المعنى، وخلق الشاعرية، ونقل صدق التجربة بعفوية إلى المتلقى ودون افتعال.

الخاتمة

وبعد النظر في ديوان ابن الصباغ الجذامي، والاطلاع على كيفية توظيفه للمذهب الحلولي داخل الأبيات، وكيف تجلى هذا المذهب في شعره، فهذه خاتمة البحث تعرض لأهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي:

1. ابن الصباغ الجذامي من شعراء الأندلس الذين سقطت معظم أخبارهم من صفحات المؤرخين ولم يرِد من أخباره سوى اسمه وزمن الدولة التي عاش فيها.
2. خلط ابن الصباغ بين المديح النبوي والمذهب الصوفي، فأتت قصائده مليئة بالألفاظ والإشارات الصوفية التي حملت دلالات خاصة ساعدت على إثراء النص الشعري على مستوى المعنى والتجربة والعاطفة.
3. اختلط مصطلح الحلول بمصطلحات أخرى مثل مصطلح الفناء والاتحاد، واستعملت هذه المصطلحات الثلاثة، وقد سكتت بعض الدراسات عن هذا الخلط، وكشفت عنه دراسات أخرى.
4. تجلى المذهب الحلولي بشكل واضح في شعر ابن الصباغ الجذامي، ولقد وظف الشاعر العديد من الوسائل التعبيرية للوصول إلى هذا التجلي، وذلك مثل استخدام بعض الألفاظ والمصطلحات الخاصة بالصوفية، أو التعلل بإظهار الألم والشكوى والحزن وغيرها من الأمور.
5. ظهرت شخصية المكان واضحة في شعر ابن الصباغ الجذامي، ولقد وظفها الشاعر في الإشارة إلى المذهب الحلولي، والكشف عن أسراره، مما انعكس على المعنى والتجربة.

6. لم يكن شـعر ابن الصـباغ الجذامي على قدر من الفصـاحة والجزالة ما يجعله يرقى إلى كثير من كبار الشــعراء، ولكن شــعره قد عبر بصــدق وإخلاص عن تجربة صــوفي قد الْتاعَت نفسه من آلام الشوق، وتمني حرارة اللقاء.

الهوامش

([1]) ينظر: القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ج1، 1274.

([2]) ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ج1، 194.

([3]) ينظر: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، جميل صليبا، ج1، 76.

([4]) ينظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي، 161 نقلًا عن: الفناء الصوفي في الأدب الأندلسي مقاربة تأويلية في نماذج من الفتوحات المكية، قديرة جميلة، رسالة ماجستير، 46.

([5]) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ج6، 90، ينظر أيضًا: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، ج7، 379، وينظر أيضًا: لسان العرب، ابن منظور، ج3، 70.

([6]) ينظر: المعجم الوسيط، ج2، 1016.

([7]) التعريفات، الجرجاني، تحقيق: نصر الدين تونسي، ج1، 22.

([8]) الكليات: أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ج1، 33.

([9]) ينظر: مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، محمود الشوبكي، 31.

([10]) إرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول– عشرة رسائل تراثية نادرة، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، 15.

([11]) ديوان ابن الصباغ الجذامي، تحقيق: محمد زكريا عناني وأنور السنوسي، د.

([12]) ينظر: الديوان، ل.

([13]) ديوان ابن الصباغ، 103.

([14]) تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية ابن عربي، أمين يوسف عودة، رسالة ماجستير، 13.

([15]) ديوان ابن الصباغ، 100.

([16]) ينظر: قاموس المصطلحات الصوفي دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، أيمن حمدي، 67.

([17]) قاموس المصطلحات الصوفي، 69.

([18]) ديوان ابن الصباغ، 136.

([19]) الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة –ابن الفارض– أنموذجًا، بولعشار مرسلي، رسالة ماجستير، 224.

([20]) ديوان ابن الصباغ، 135.

([21]) الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرًا، فؤاد صالح السيد ، 115.

[22]() ينظر: بنية النص الروائي، إبراهيم خليل، 31.

[23]() ينظر: شعرية المكان– رواية جلدة الظل من قال للشمعة أف؟ لعبد الرازق بوكبة.. أنموذجًا، فريدة لعتيقي، سهيلة تواتي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، 23.

([24]) ديوان ابن الصباغ، 30.

([25]) ديوان ابن الصباغ، 9.

([26]) ديوان ابن الصباغ، 53.

المصادر والمراجع

أولاً :الكتب:

–إرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول ـــ عشرة رسائل تراثية نادرة، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الفكر، القاهرة ، مصر، ط1، 2007م، 1427هـ.

–الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرًا، فؤاد صالح السيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

–بنية النص الروائي، إبراهيم خليل، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان، ط1، 2010م.

–تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، الكويت، ط2، الجزء السابع.

–تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية: ابن عربي، د.أمين يوسف عودة، ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط2 ، 2018م.

–التعريفات، الجرجاني، تحقيق: نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، مصر ،ط1، 2007م، الجزء الأول.

–تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1368م.

–ديوان ابن الصباغ الجذامي، تحقيق: محمد زكريا عناني وأنور السنوسي ، دار الأمين، القاهرة ، مصر، ط1، 1999م، 1419هـ.

–القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الجزء الأول.

–قاموس المصطلحات الصوفي دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، أيمن حمدي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م.

–الكليات: أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، 1419م، الجزء الأول.

–لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الجزء الثالث.

-المعجم الفلسـفي بالألفاظ العربية والفرنسـية والإنجليزية واللاتينية، جميل صـليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، الجزء الأول.

-معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، 1399هـ، الجزء السادس.

-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار العودة، الجزء الأول.

-مفهوم التصـوف وأنواعه في الميزان الشـرعي، محمود الشـوبكي ، مكتبة آفاق، غزة ، فلسـطين، ط1، 2002م.

ثانياً: الرسائل العلمية:

-الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة -ابن الفارض- أنموذجًا، بولعشار مرسلي، أطروحة دكتوراه، بإشراف: الأستاذ الدكتور أحمد مسعود ، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران- أحمد بن بلة1-، 1435 ـــ 1436 هـــ، 2014 - 2015م.

-شـــعرية المكان- رواية جلدة الظل من قال للشـــمعة أف؟ لعبد الرازق بوكبة.. أنموذجًا، فريدة لعتيقي، سهيلة تواتي مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، بإشراف : د. لونيس بن علي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب، جامعة عبد الرحمن ميرة، 2012 - 2013م.

-الفناء الصـــوفي في الأدب الأندلســـي مقاربة تأويلية في نماذج من الفتوحات المكية، قديري جميلة، رسالة ماجستير، بإشراف: د. حسن بن مالك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2009 - 2010م.

References

Al-Fairuzabadi, Mohammad bin Ya'qub. *Al-Qamus ul-Muheet*. Vil. I. Beirut: Dar ul-Kutub il-'Ilmiya, n.d.

Al-Jurjani. *At-Ta'rifaat*. Vol. I. Ed. Nasruddin Tunisi. Cairo: Sharikat ul-Quds lit-Tasdeer, 2007

Al-Kufi, Abul Baqa' bin Musa Al-Huseini. *Al-Kulliyat*. Ed. Adnan Darwish Mohammad..

Al-Mizyadi, Ahmad Farid. *Irshadu Thawi il-Oqul ila Bara'at is-Sufiyati min al-Ittihad wal Hulul: 'Ashrat Rasa'il Turathiya Nadira*. Ed. Ahmad farid Al-Mizyadi. Cairo: Dar ul-Fikr, 2007.

Anani, Mohammad Zakaria & Anwar As-Sanusi.,Eds. *Diwanu Ibn us-Sabbagh Al-Juthami*. Cairo, 1999.

Ar-Razi, Ahmad bin Faris bin Zakaria Al-Qizwini (d. 395 AH). *Mu'jam Maqayis il-Lugha.* Vol. VI. Ed. Abdul-Salam Mohammad Harun. Dar ul-Fikr, 1979.

Ash-Shuwaiki, Mahmud. *Mafhum ut-Tasawuf wa Anwa'uhu fil Mizan ish-Shar'i.* Ghaza: Maktabatu 'Afaq, 2002.

As-Sayid, Fu'ad Salih. *Al-Amir Abdul-Qadir Al-Jaza'ir Mutasawifan wa Sha'iran*. Algiers: Al-Mo'assasat ul-Wataniya lil-Kitab, 1985.

Az-Zubaidi, Mohammad bin Mohammad bin Abdul-Razzaq Al-Murthadha. *Taj ul-'Aarus min Jawahir il-Qamus*. Vol. VII Kuwait, n.d.

Hamdi, Aiman. *Qamus ul-Mustalahat is-Sufi: Dirasatun Turathiya ma'a Sharhi Istilahati Ahli is-Safa' min Kalami Khatami l-Anbiya'*. Cairo: Dar Quba', 2000.

Ibnul Jawzi. *Talbees Iblees*. Beirut: Dar ul-Kutub il-'Ilmiya, 1368 AH.

Ibnu Mandhur. *Lisan ul-Arab*. Vol. III. Beirut: Dar Sadir

Khalil, Ibrahim. *Buniyat un-Nass ir-Riwa'i.* Beirut: Al-Dar ul-Arabiyatu lil 'Olum, 2010.

Majma' ul-Lughati il-Arabiya. *Al-Mu'jam ul-Waseet*. Vol. I. Beirut: Dar Ul-Awda, n.d.

Mursil, Bulashar. "Ash-Shi'r us-Sufi fi Dhaw'i il-Qira'at in-naqdiyat il-Haditha: Ibnul-Faridh Onmuthajan". PhD dissertation. Oran University, College of Arts, 2010.

Oda, Dr Amin Yousif. *Ta'weel Ish-Shi'ri ind As-Sufiya: Ibnu Arabi*. Amman: 'Alam ul-Kutub il-Hadith, 2018.

Qaderi, Jameela. "Al-Fana' us-Sufi fil Adab il-Andlusi: Muqarabatu Ta'wiliya fi Namathij min al-Futuhat il-Maakkiya". MA thesis. Oran University, College of Arts, 2010.

Sleba, Jameel. *Al-Mu'jam ul-Fulsafi bil Alfadh il-Arabiya wal Ingiliziya wal Latiniya*. Vol. I. Beirut: Dar ul-Kitab il-Lubnani, 1982.

Tawati, Suhaila. "Shi'riyat ul-Makan: Riwayatu Jildat idh-Dhilli man Qal lish-Sham'ati 'Uf? Li Abdul-Razzaq Bukibba, Li'teqi, Farida " MA thesis, Jami'at Abdul-Rahman, College of Arts, 2013.